٢ ـ طاغور وغاندى

بين الشرق والغرب

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكى

إن آراء طاغور التى توحد بين الشرق والغرب ، آراء مفكر مثالى ، عاش بوجدانه يستلهمه الحكمة ، ويستوحيه المعانى الإنسانية ، فلم يتعثر بمفاسد الحياة الدولية ، ولم يختبر سوء نية الحكومات الاستعمارية إلا عن بعد ؛ فاستطاع أن يدرك ما فى المدنية الغربية من مثالب ، وما فى عادات الهند القديمة من ضعف وأن يصور لنا إنموذجاً فكرياً خالياً من شوائب الماضى والحاضر ولكن هذا النموذج المثالى ينقصه الاتجاه التنفيذى والناحية الإلزامية ، كما لم يضع وسائل عملية ، يستعان بها فى تحرير الغرب من المادية والأثرة وحب السيطرة ، ولم يسن أساليب جديدة ، تخرج الهنود من عزلتهم ، وتدمجهم فى تيار الحياة الحديثة بخلاف غاندى الذى عرك الحياة السياسية ، واحتك بخبث الحكومات الانجليزية ، فتكشف له خداعها وغدرها ، وتبين له بجلاء أنها تهدد باسم الدفاع عن الحرية ، وباسم الشرف والحق جميع الأنظمة الخلقية التى تحدد علاقات الأمم بعضها ببعض ، وتاهى الشعوب الخاضعة لسيطرتها بالوعود الكاذبة ، لتنال منها ما تريد . فاتضح لغاندى أن الروابط الدولية لا تستند على أى أساس خلقى ، وإنما تخضع للأهواء والمصالح ، وتستند على الغش والخيانة . وأن الدول الغربية لا تجعل للحياة إلا غرضاً واحداً ، هو النفع المادى أو الإصلاح المادى أو الرقى المادى ، ولا تعترف بالحياة الروحية أو بالقيم الإنسانية . فاستعبدتها المادة لدرجة أنها لا تحجم عن ارتكاب ذى جريمة تتنافى وكرامة الإنسانية فى سبيل الحصول على هذه المادة الحقيرة . وأخذت تسترق الشعوب وتسلبها مواردها الطبيعية ، وتتلف حيويتها وتفسد أخلاقها ، حتى لا تنتبه للذى يسرقها .

فأدرك غاندى بثاقب بصيرته أن مدنية الغرب ليست بالمدنية المثالية ، ومن المجرم أن تعتمد عليها الهند فى نهضتها ، لأنها لن تفوز بمجد ، إلا إذا رجعت إلى تراث حضاراتها القديمة وبعثته من جديد فى صورة تلائم روح الهنود العصرية ؛ ورفضت أن تأخذ من الغرب شيئاً ؛ وعملت على أن تتخلص تدريجياً من كل ما شاع بين أبنائها من الغرب ، لتتحرر نهائياً من تأثير حضارته المادية الضار بحياة الهنود . فلم يدع غاندى إلى اتحاد الشرق والغرب ، لأنه وجد الغرب يستعبد الشرق ، ويستغل خيراته ، ويستنزف أرزاق أهله . ولم يثق فى صدق نواياه فى التعاون ، لأن اصطدامه بالاستعمار البريطانى أظهر له عيوب الأخلاق الدول الغربية ، وأراه الانجليز الذين أخلص لهم الولاء وحض شعبه على مساعدتهم أثناء الحرب العالمية الأولى ، يحنثون فى وعودهم المتكررة ، ويرفضون منح الهند استقلالها ، ويكبلونها بأنظمة قاسية توطد سيادتهم عليها . ولذلك لم يفكر غاندى فى تقريب وجهات النظر بين الشرق والغرب كما فعل طاغور وإنما لبى نداء الوطن ، وهب يخط للهنود خططاً عملية مستمدة من تقاليد الديانات الهندوكية ، لمحاربة الاستعمار المادى الأنانى الطاغى حتى يتبين له أن مقدماته العقلية والفنية والخلقية ، لا يمكنها أن تسحر روح الهند وتخدرها ، ثم تغريها بمجاراة الحياة الغربية ، فتتنازل على ما جبلت عليه من تعاليم وعادات ، وتقبل أن تهدم كيانها الروحى من أجل محاكاة ما توصلت إليه المدنية الحديثة من رقى مادى ، فيسهل على الغرب فرض نفوذه على شتى نواحى الحياة الهندية .

فوقف غاندى كالصرح العتيد أمام الغرب ، يحمى تراث الهند الروحى من الضياع والتلف ، ويستنهض همم الهنود لمقاومة طغيان الإنجليز . ولجأ إلى طرق فذة ناضجة فى مناضلة الاستعمار فى الهند ، هداه إليها مزاجه الهندى السليم ، وطبيعته الروحية الشرقية التى تعشق السلام والخير ، وتولع بالتسامح والحب ، وتكره العنف والقسوة . فاستنجد بمقومات الروح الهندية الأصلية ، واستغل كلف الهنود بالزهد والمجاهدة من أجل تخليص الروح من أدران الحياة ، وإعدادها للتلاشى فى روح الله الكبرى التى تشمل كل محتويات الكون . وأخرجه من كهف الزاهد إلى ساحة الجهاد السياسى ، وتقل مقدرة الهنود النادرة على تحمل الآلام الجسمية ومقاساة تعذيب النفس ، من نطاق القوانين

الدينية إلى نطاق التضحية الوطنية . ولم يكلف ذلك غاندى كبير جهد ، لأنه يعلم أن الزاهد الهندى تعود منذ القدم أن يحارب شهواته بأساليب سلبية هادئة ، يقومها الحب والخير والسلام . فكان يعتزل الحياة التى تشغل الإنسان بالأرض والمادة ، وتلهيه عن الاتحاد بالله الذى يتحمل الزاهد فى سبيل الفناء فيه كل ألوان العذاب النفسى والجسمى . فاستنتج غاندى بعبقريته الروحية أن الهندى العادى فى نضاله مع الانجليز يمكنه أن يحاكى الزاهد القديم فى محاربته الشهوات والأهواء وملاذ الحياة بوسائل سلمية قاسية . وعزم على أن يعلم الهندى أن يقاوم المستعمر بسلاح سلبى سلمى ، قد يعرضه للاضطهاد والتنكيل ، ويتطلب منه إيماناً بالحق الذى يدافع عنه ، وتضحية وعزماً وثباتاً فى سبيل الفوز به . وهذا السلاح يتفق مع المزاج الهندى الروحى ، لأنه لا يخرج على التسامح والحب والسلام ، ولا يعتمد على العنف أو القسوة ، ولا حتى يثير العداوة والبغضاء فى النفوس وإنما يقصد إزالة قوانين جائرة ، أو تحقيق استقلال شعب مستعبد عن طريق معاناة الألم والمشقة ، كما كان يعانى الزاهد قديماً مثل هذه الآلام فى سبيل فناء ذاته فى الله . وبذلك استطاع غاندى أن يطلق الطاقات الروحية الكامنة فى أعماق نفوس الشعب الهندى ، ويفسح لها الطريق لتخوض مضمار الحياة السياسية ، ويشهر فى وجه الانجليز سلاح « الستياجراها » أى سلاح « المقاومة السلبية » الذى ينقسم إلى قسمين أحدهما : العصيان المدنى ، والآخر : اللاتعاون

أما عن العصيان المدنى : فهو نوع من الإضراب العام السلمى ، يمتنع الشعب أثناءه عن أداء أى عمل خلاف الصلاة والصوم . ويستخدم كوسيلة لنيل حقوق مهضومة ، أو لفوز باستقلال مسلوب ، وكطريق لإلقاء مشاريع ظالمة أو لرفع ضرائب فادحة ، مثل ضريبة الملح وقانون احتكار الانجليز لصناعته . وقد يكون هذا العصيان كذلك نوعاً من المعارضة الدستورية ، تبدو فى صورة رفض طاعة قانون من القوانين الجائرة وعدم تنفيذه أو الخروج عليه ، مثل صناعة أحد العهود الملح المحذور صناعته على أهالى الهند . ويشترط غاندى فى من يشترك فى العصيان ، أن يكون مالكا زمام نفسه مسيطراً على أهوائه ، بحيث لا يضطر إلى أن يثير أى عنف أو يثيره أى عنف ، حتى يخلو العصيان من الشغب ، ويسير حسب الآداب المرعية ، محافظاً على الأمن ، محترماً للنظم المتبعة فى البلاد . ولكى يضمن غاندى سلمية العصيان ، حرص على إعداد الشعب له تدريجياً ، علماً منه بأن الشعب حديث العهد به وغير تام الأهبة له ، وليس من الحكمة أن يطلب منه مثل هذا العصيان ، قبل أن يألف نظمه وأساليبه ، وقبل أن يملك أسرة النفس . فسن قواعد دقيقة لتنظيم حركات العصيان ، وحصرها فى ميادين يخصصها لهم غاندى ، يشرف عليها منظمون مدربون على العصيان السلمى ، وقادرون أن يمرنوا الشعب على تجنب العنف فى عصيانهم وأن يحبطوا ما يمكن أن يحدثه الرعاع من شغب ، قد يسبب اضطرابات وفتنا ، تبيح النفوس ، وتثير الفوضى ، فتندلع نيران ثورة دموية ، لا يعرف مدى نتائجها الوخيمة . ولا يكفى اجتناب الشعب الشغب ليضمن حسن سير العصيان وهدوئه ، بل يتطلب كذلك قدرة نفسية على تحمل كل ما يمكن أن يقع على الهندى من عذاب واضطهاد ، نظير عصيانه هذا الذى لا يرضى عنه المستعمر ، بل يغضبه . وكذلك يجب ألا يبالى الهندى بما قد ينزل به من ألم ، بأن إهانة المستعمر أو سبه ، يجب عليه أن يتحمل ذلك بصبر وأناة ، ولا يثير أو يقابل الإهانة بالإهانة والسب بالسب ، ويسامحه . وإن أرادت السلطات الحاكمة أن تقبض عليه وتدفع به إلى السجن ، يجب أن يسلم نفسه من غير مقاومة ، غير مهتم بما سوف يذوقه من تنكيل فى الغد . وإن جلد بوحشية ، وركل بالأرجل ، وصفع بالأكف ، يجب أن يظل ثابتاً على سكينته غير آبه بما يقع عليه من ضروب القسوة المهينة . وإن أرهب بالقتل ، وهدد بالموت ، يجب أن يتمسك برابطة اليأس ، ولا يجزع من فقدان حياته ، ويرحب بالتضحية بها فى سبيل الغاية السامية ، ولا يلجأ مطلقاً إلى العنف ، بأن العفو أشرف من الانتقام فلا يجب أن يقابل عنف الخصم بالعنف وإنما يواجهه بنور الحب الذى يسطع من إيمانه بحقه وتفانيه فى الدفاع عنه ، ويتنبه من آلامه التى احتملها طواعية فإن عدم العنف لا يدل على ضعف أو خوف أو استسلام للسوء وإنما يدل على رضاء النفس بالعذاب فى سبيل الحق الوطنى ،

ورغبتها فى مقاومة المستعمر بقوة الروح للحصول على الاستقلال.

وبالرغم من كافة هذه الاحتياطات ، وجمال هذه التعليمات ، فلم يخل عصيان من عنف ، وذلك لأن الشرطة كانت كثيراً ما تتحرش بالشعب وتستفزه ، وسريعاً ما تنقلب سلمية العصيان إلى همجية بربرية وفوضى بهيمية يطلق فيها الرصاص ، وتراق الدماء ، وتشمل الحرائق ، وتنهب البيوت والمحال التجارية ، وتتحطم المرافق العامة . وكل هذا كان يؤلم غاندى ويغضبه أشد الغضب ، وحاول أول الأمر أن يمهد للعصيان المدنى السلمى الشامل بتمرين الهنود على اللاتعاون مع الانجليز ، ومقاطعتهم سياسياً واقتصادياً وثقافياً ، حتى يدركوا كنه العصيان السلمى ، ويتشربوا بمبادئه . ولكنه وجد أن من العسير أن يتحقق عصيان بدون عنف ، ولذلك فضل عليه اللاتعاون الذى لا يتخلله أى شغب أو اضطراب .

واللاتعاون هو سلاح المقاومة السلبية الثانى ، قصد به غاندى مقاطعة الغرب سياسياً واقتصادياً وثقافياً من ناحية ، وتقوية روح الهنود المعنوية ورفع مستوى المعيشة وترقية الحياة العامة عن طريق استغلال مقدمات الهند القديمة لصالح البلاد من ناحية أخرى . ولجأ إليه بعد أن بلغت حماسة الهنود الوطنية حد الانفجار ، فأراد أن يخفف من شدة هذه الحماسة بحثهم على مقاطعة الانجليز وعدم التعاون معهم ، حتى لا ينقلب التذمر من سوء الحالة السياسية إلى ثورة دموية . واستطاع غاندى بذلك أن يشغل حماسة قومه بضرب من المقاومة السلمية ، ألهتهم عن اتباع أى أسلوب عنيف يكرهه ، وأن يعطى فى الوقت نفسه فرصة لمبادئه فى المقاومة السلبية لتتسرب إلى نفوس الهنود ، وتستقر فى قلوبهم ، فيألفون روح النضال السلمى ، ويؤمنون بقوة اللاعنف ، وقدرة الحب على رفع ظلم الانجليز واستعبادهم للبلاد .

وطلب غاندى من الهنود ألا يتعاونوا مع الانجليز سياسياً وحربياً وقضائياً واقتصادياً وثقافياً ويقصد من اللاتعاون السياسى أن يتنازل كل فرد عن الألقاب والرتب الشرفية التى منحتها له الحكومة الانجليزية ، وأن يمتنع عن الاكتتاب فى قروض الحكومة ، وأن يتجنب التوظف فى الوظائف الحكومية ، وأن يقاطع مجالس الإصلاحات الدستورية ، حتى يقطع الهنود أية علاقة تربطهم بالحكومة ، فيشل دولاب العمل ويتحرج مركزها ، وتضطر فى النهاية إلى مهادنة الهنود وتلبية مطالبهم .

كذلك يجب أن لا يتعاون الهنود والانجليز حربياً ، ويرفضون أى منصب عسكرى ، يكون مدعاة لتثبيت أركان الاستعمار فى البلاد .

أما عن عدم التعاون القضائى ، فينبغى أن يمتنع جميع القضاة عن الاشتغال بالمحاكم الحكومية ، وأن يتوقف رجال القانون عن المرافعة بها ، وأن ينقل الفصل فى الخصومات بين المحاكم الأميرية إلى التحكيم الأهلى . ذلك لأن المحاكم فى الهند آلة بيد السلطة البريطانية ، تحاول أن توطد بها نفوذها فى البلاد عن طريق إذكاء نار الشقاق بين الهنود ، ونشر النزاع بين الطوائف وهى لا تعيش إلا على إيذاء الناس ، بينما تجادل بالجاجة عند دفع الحقوق ، وتسوف عند طلب الوفاء بالتعهدات . فأصبح تعطيل المحاكم الحكومية أمراً ضرورياً لضمان توحيد كلمة الهند وتعاون أفرادها .

وتتلخص المقاومة الاقتصادية فى أن الهند بأجمعها ، يجب أن تقاطع المنسوجات البريطانية ، لأن الشركات الانجليزية سيطرت على الحياة الاقتصادية فى البلاد ، وقضت على الصناعات الأهلية وامتصت موارد الثروة الهندية ، فهى تسلب سنوياً قطن الهند ، وتصدره لها بعد حين منسوجات ، تفرض عليها شراءها بأثمان باهظة . ولكى تحمى الهند اقتصادياتها من الإنجليز يجب أن تكفى نفسها بنفسها وتستغنى عن خدمات الغرب ، وتبادر إلى تنظيم مصانعها الأهلية ، وتتخذ من الغزل اليدوى وسيلة لحل مشكلة الفقراء فى الهند . إن ثمانين فى المائة من سكان الهند فلاحون ، لا عمل لهم خلال أربعة شهور من السنة ، وعشر الأهلين صناع جياع ، بينما الطبقة الوسطى لا تجد كفايتها من الغذاء ، وإنجلترا لاهية عن كل ذلك ، لا تعمل على معالجة هذه الحالة بل تزيدها سوءاً ، فإن المغزل اليدوى هو المنقذ الوحيد للهند من الفقر ، فإنه يشغل هؤلاء العاطلين الجائعين ويوفر لهم ملابسهم ، ويضمن لهم قوتهم اليومى بتكاليف بسيطة .

ولم يرض غاندى أن يدخل النظام الآلى فى الهند ، ويتلذذ منه وسيلة لحل مشكلة البطالة ، لأنه لم يرد أن تصاب الهند بأمراض الغرب المادية ، وحارب من مواطنيه من يحرض على إدخال النظام الآلى فى الهند ، حتى لا يسمح لأصحاب المال بتسخير فقراء الهنود فى مصانعهم ، التى تدر عليهم الربح الوفير ، وخوفاً من أن يصبح قلب الهند من حديد بعبد الآلة التى تدير المصانع ، وتجلب المال ذلك الوطن العظيم الذى يقدسه الغرب ، بأن الآلة مطية فاحشة ووسيلة شيطانية تسترق الشعوب لخفنة من الناس يستعبدهم المال فيجب حماية الهند من شرها ، وإبعاد خطرها عنها ، حتى لا يزداد نفر الهنود على ما هو عليه .

ولكى يشمل عدم التعاون والغرب كل شىء ، دعا غاندى إلى مقاطعة الطلبة والمعلمين المدارس الأميرية ، والجامعات الحكومية ، التى فى صيانة الانجليز وقت مراقبتهم مثل جامعة عليكرة الإسلامية ، وجامعة حلصا السيخية ، وجامعة بنارس الهندوكية ، لأنها تهمل دراسة الثقافات الهندية واللغات القومية وتلقن الطلبة ثقافات عقلية ، ولغات أوربية ، تفسد مشاعرهم الوطنية ، وتتلف مزاجهم الشرقى ، وتبعدهم عن ثقافتهم الأصيلة فشب الهنود يفضلون ثقافات الهند ، مع أنها غرست فى نفوسهم ميولا غريبة عنهم ، وعلمتهم الجدل واللجاجة ، وحرمتهم من التربية الخلقية والروحية ، التى تصفى القلب ، وتطهر النفس . كما نشأوا يتكلمون اللغة الإنجليزية ، ويجهلون لغاتهم القومية ، هذا فضلاً عن تجاهل المدارس الحكومية والجامعات الإنجليزية أهمية العمل اليدوى ، وإغفال تدريسه فى بلاد تمانون فى المائة من أهلها فلاحون وزراع ، وعشرة فى المائة منهم صياغ ، وينشرون دراسات أدبية ، لا تفيدهم فى حياتهم ، ولا تتفق ومصالحهم ، ولا تساعدهم فى أعمالهم . ولذلك يرى غاندى أن تمتنى شتى الهيئات التعليمية فى البلاد ، بتدريس جميع الثقافات الأسيوية التى دخلت الهند منذ القدم . لأن ضرورة معرفتها للشخص المثقف لا يقل عن ضرورة معرفة الثقافات الغربية التى تسيطر على الحياة العلمية فى الهند ، وتحتكر الأسواق الثقافية ، وتقضى على رغبة الهنود فى تعلم ثقافات الهند الأصلية ، مع أنها أصلح لهم من أية ثقافة أخرى ، لأنها تتفق وميولهم الفكرية ، وتهتم بالتربية الروحية والتثقيف الأخلاقى ، فوق أن دراستها يحيى العزة القومية ، وينمى روح الهنود المعنوية ، فينبغى أن يبحث مفكرو الهند عما فى السنسكريتية والعربية والفارسية والبالية والماجدية من مخلفات علمية ، لعل بحثها يهدى إلى كشف ثقافات جديدة مبتكرة ، تستمد أصولها من هذه الثقافات التى دخلت الهند ، وأثرت فيها ، وتأثرت بها ، وتشييد حضارة حديثة من مختلف الحضارات التى فعلت فى الهند وانفعلت بروح الإقليم . لتحرر العقلية الهندية من سيطرة الفكر الغربى ، وتنفذ روح الهند من نفوذ الثقافة الغربية ، وتظهر تفوق الهنود فى الروحية . كما تهدى دراستها إلى إدراك أسرار السيادة الوطنية ومعرفة وسائل السؤدد القومى ، التى تقودها إلى الحرية والاستقلال .

(للكاتبة نفسه)

عبد العزيز محمد الزكى
مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأميرية
بكفر الزيات

اطلب الكتب الآتية
للاستاذ محمود الخفيف
من دار الرسالة ومن المكتبات الشهيرة

١ ـ ابراهام لنكولن
ثمنه ٣٥ قرش

٢ ـ أحمد عرابى
ثمنه ٥٠ قرش

٣ ـ من وراء المنظار
ثمنه ١٥ قرش

٤ ـ تولستوي
ثمنه ٤٠ قرش